قراءات غير متأنية في النقد المعاصر

النظرية الماركسية في الفن

عبد النبي اصطيف

يستطيع المتتبع لما ينشر من دراسات وكتب في الغرب خلال العقدين الاخيرين ، أن يلاحظ بيسر الاهتمام المتزايد الذي يلقاه الفكر الماركسي بين صفوف المثقفين والكتاب والقراء على حد سواء . وربما كان من أبرز مؤشرات هذا الاهتمام ازدياد تدفق الادب الماركسي — وخاصة في ميدان النقد الادبي — تدفقا لم يسبق للغرب أن عرفه من قبل .

واذا مارغب المرء أن يقتصر على المملكة المتحدة — بريطانيا ، فانه يمكن أن يشير بسهولة الى سيل من الكتب التي تعنى بالاتجاه الاجتماعي في النقد وخاصة النقد الماركسي ، فيذكر منها على سبيل المثال : « **الماركسية والادب** » لريموند ويليامز (١) ، و « **الايديولوجيا والنقد** » و « **الماركسية والنقد الادبي** » لتيري ايفيلتون(٢) ؛ و « **علم اجتماع الادب . مداخل نظرية** » جمع وتحرير جين روث وجانيت وولف(٣) ؛ و « **علم اجتماع الادب : دراسات تطبيقية** » جمع ديانا لورنسون(٤) ؛ و « **علم اجتماع الادب** » لديانا لورنسون وآلن سونيفورد(٥)، و « **الرواية والثورة** » لآلن سونيفورد(٦)، و « **الشكلية والماركسية** » لتوني بنيت(٧)، و **كارل ماركس وادب العالم** » ك س ، برافر(٨) .

وهذا الى جانب الكتب العديدة المترجمة عن الفرنسية والالمانية والروسية والاسبانية والتي تشمل دراسات لجورج لوكاتش ولوسيان غولدمان ، وماشيري ، وادرنو ، وباليبار ، ووالتر بنيامين وغيرهم ؛ واضافة الى المؤتمرات وحلقات البحوث العديدة التي خصصت لمناقشة

مايمكن ان يقدمه الفكر الماركسي من دفع للمنهج الاجتماعي في النقد .

وبالطبع فان رصدا دقيقا لمحاور هذه النشاطات المختلفة يقتضي بحثا واسعا ، ودراسة مستفيضة يأمل صاحب هذه السطور ان يقوم بهما على مراحل في وقت لاحق . وعلى اي حال فان اشارة مقتضبة لكتاب صدر مؤخرا عن دار النشر هارفستر في بريطانيا من تأليف ديف لانغ بعنوان :

« النظرية الماركسية للفن : مسح تمهيدي(٩) »

The Marxist Theory of Art : An Introductory Survey

ربما كانت تصلح كبداية .

* * *

والحقيقة أن كتاب ديف لانغ قد صدر ضمن سلسلة تحمل عنوان : **« النظرية الماركسية والراسمالية المعاصرة »** والتي يحررها جون ميغم والتي ظهر منها حتى الآن عدة كتب أهمها :

١ ـ **تقسيم العمل : عملية العمل وكفاح العمال في الراسمالية الحديثة :** لاندريه غورتز .

٢ ـ **اصوات تشيلية : فعالون يصفون تجاربهم في فترة الوحدة الشعبية:** لكولن هنري وبرنارد سورج .

٣ ـ **اتحادات العمال في ظل الراسمالية :** لتوم كليرك ولوري كليمنتس.

٤ ـ **تحول الاقتصاد الاشتراكي :** لتشارلز بيتلهيم .

٥ ـ **تحرير المراة في الصين :** لكلودي بروياي .

٦ ـ **الراسمالية في ازمة ، والحياة اليومية :** لميشال بوسكي .

٧ ـ **الماركسية والمادية : دراسة في النظرية الماركسية في المعرفة :** لديفيد هيليل ـ روبن .

وقد ولد مؤلف الكتاب ديف لانغ في كنت عام ١٩٤٧ ، أي انه من الجيل الجديد من المثقفين اليساريين في بريطانيا ، ودرس في جامعة ساسيكس، ليعمل بعدها كاتبا وصحفيا . وله عدة كتب في الموسيقا والفنون ، كان آخرها الكتاب الذي هو موضوع هذه المقالة القصيرة والذي استغرق العمل فيه ثلاث سنوات .

* * *

يشغل الفن مكانا خلافيا جدا في الفكر الماركسي ، ورغم انه ليس هنالك من يدعي للملاحظات المتفرقة ، التي نجدها في كتابات ماركس وانجلز عن طبيعة الفن ووظيفته وصلته ــ كجزء من البنية الفوقية ــ بالقاعدة، صفة التماسك أو الاتساق ، بله كونها نظرية متكاملة ، الا ان المرء لايمكن له من جهة اخرى الا ان يقر بأن هذه الملاحظات المتفرقة قد ظفرت باهتمام كبير بين صفوف الادباء والنقاد والفنانين والباحثين في هذا القرن . وقد استطاعت النقاشات المستمرة والمجهودات المتتابعة أن تطور نظرية ماركسية متكاملة في فهم الفن وتحديد طبيعته ووظيفته وصلته كنشاط انساني بانماط النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الاخرى للانسان .

والكتاب الذي بين أيدينا هو مسح تمهيدي لهذا التطور الذي مرت به القضية الفنية في الفكر الماركسي . وهو تتبع ذكي للآراء التي تبناها ابرز النقاد والمفكرين الماركسيين ضمن منظور يؤكد على علاقة هذه الآراء وصلتها بالمناخ الثقافي في الوقت الحاضر .

فالمؤلف على سبيل المثال يتتبع ظهور ما اصطلح على تسميته بـ «الواقعية الاشتراكية » كمفهوم في النقد الادبي في الاتحاد السوفييتي في الربع الثاني من هذا القرن ، ويوضح كيف تحققت له السيادة بعد ان هزم الاتجاه الشكلي والشكليون الروس في بداية الثلاثينات ، ثم يبين كيف انه غدا موضعا للنقاش والنقد في الاربعينات والخمسينات ومن قبل نقاد ماركسيين كبريخت وواالتربنيامين وإرنست فيشر وغيرهم من الذين تحدو آراء لوكاتش وغوركي ، او كآخرين تبنوا آراء لوكاتش المثيرة وطوروها ودفعوها في طريق جديدة كما نجد عند لوسيان غولدمان .

يقع كتاب ديف لانغ في مدخل وسبعة فصول مطولة : تتتبع تاريخيا تطور النظرية الماركسية في الفن منذ ماركس وانجلز وحتى الوقت الحاضر ، تتبعا يغلب عليه طابع الحياد في التقديم من جهة ، ومحاولة نقد جوانب من هذه النظرية من خلال عرض وجهات النظر المختلفة التي تناولت هذه الجوانب من جهة اخرى . اي انه تاريخ داخلي للنظرية الماركسية يرافقه نقد ذاتي داخلي ايضا من قبل الماركسيين انفسهم .

وبالطبع فان تتبعا كهذا سوف يضطر المؤلف الى التركيز على الشخصيات الاكثر اهمية والاشد تاثيرا في هذا التطور ، وعلى المناقشات التي ساهمت في بلورة القضايا الاساسية في النظرية الماركسية . وهذا ماكان .

يبدا المؤلف في مدخله بالاشارة الى **الغياب الاساسي لنظرية للفن في كتابات ماركس وانجلز** ، والى نظرتهما الى الفن كجزء من البنية الفوقية Super structure يتمتع بقسط محدود من الاستقلالية والحرية ولكنه محكوم في النهاية بالقاعدة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الذي ينشا فيه . وبعدها يناقش الملاحظات والاقوال التي وضعت على شكل مختارات ثم جمعها من مؤلفات كل من ماركس وانجلز والتي شكلت نواة النظرية الماركسية ، ويتعرض الى بليخانوف وصلته بفكر ماركس وانجلز في الفصل الاول الذي يعنونه بـ « اصول لعلم جمال » .

اما في الفصل الثاني فان المؤلف يناقش قضية الواقعية الاشتراكية وصلتها بالقيادة الاجتماعية ، فيدرس مفهومي الثقافة والفن في كتابات لينين . ومفهومي الثقافة البروليتارية والشكلية في كتابات تروتسكي ثم ينتقل الى نشاط اليساريين في العشرينات والثلاثينات في الاتحاد السوفييتي والى انبثاق مصطلح الواقعية الاشتراكية وتطوره في تلك الفترة .

ويستعرض المؤلف في الفصل الثالث « النقاش الالماني » فيدرس واقعية لوكاتش ، ونقاشه مع بريخت لينهيه بالتوقف عند آراء والتر بنيامين وادرنو في الواقعية النقدية .

ويغادر المؤلف اوربا في الفصل الرابع الى الصين فيتناول الواقعية الاشتراكية فيها ، ويشير الى لوهسون وادباء شنغهاي الفقراء ، والى ماو والقواعد الثورية والنضال الثقافي داخل الاشتراكية .

اما الفصل الخامس فيخصصه لدراسة تطورات مابعد الحرب العالمية الثانية . ويدرس فيه قضية الالتزام والكتابة ، وبنيوية غولدمان ، واسهامات التوسر وغرامشي ، واهمية الايديولوجيا في كتاباتهما . ثم

ينتقل الى دراسة بارت والاسطورة والدال Signifier وجماعة Tel Quel والمتعذر قراءته او غير المقروء Unreadable .

وبعد هـذا الاستعراض التاريخي يتناول المؤلف في الفصـل السادس قضايا تتصل بجماهيرية الثقافة فيدرس العلاقة بين الماركسية والثقافـة الشعبية ، وصناعـة الثقافـة ، والتلفزيون ، والفيلـم ، والموسيقى الشعبيـة .

اما الفصل السابع والاخير فيعنى فيه المؤلف بدراسة التطورات الامريكية والبريطانية ، فيدرس العلاقة بين الرومانتية والماركسية ، ويركز على كريستوفر كودويل وفترة الثلاثينات والنقد اليساري فيهـا ، لينتقـل بعدها الى امريكا ويشير الى بعض الموضوعات الامريكية ويختم كتابـه بالحديث عن الاتجاهات الجديدة فيما يمكن دعوته بالماركسية البريطانية.

* * *

وبعد هذا الاستعراض السريع جدا لمحتويات الكتاب يمكن للمـرء ان يشير الى الملاحظتين التاليتين :

١ ــ ان هذا الكتاب يكاد يكون الوحيد في بابه باللغة الانكليزية في مسحه للنظرية الماركسيـة في الفن وتتبعهـا من اصولهـا الاولى وحتى اواخر التطورات التي مرت بها من خلال الصلات الوثيقة التي توطدت بينها وبين البنيوية على يد غولدمان من جهة ، والسيمائيات Semiotics على يد السيمائيين الروس والفرنسيين في السنوات الاخيرة(١٠) . والحقيقة ان هذا الامر يكتسب اهمية خاصة اذا ما علمنا انه حتى المختارات التي حاولت جمع النصوص النقدية الماركسية اغفلت هذه الصلات الحميمة التي نشأت في السنوات الاخيرة ، والتي يمكن لها ان تفتح افاقا جديـدة اذا ما أحسن استخدامها والاستفادة منها .

٢ ــ لايمكن لقارىء الكتاب الا ان يشير الى السهولة والوضوح اللذيـن يطبعان اسلوب المؤلف في عرضه لجملة التطورات التي مرت بها النظرية الماركسـية ؛ والى هذا الالحاح على التطور الداخلي والنمو الذي حققته

ملاحظات انجلز وماركس لتغدو على يد الماركسيين الجدد في أوربا نظرية متماسكة في تعاملها مع الفن ، وفي تفسيرها لطبيعته ووظيفته في المجتمع المعاصر . وكذلك لايمكن له ان يغفل النقد الذاتي الداخلي الذي تم ضمن نطاق الماركسية نفسها ومن قبل دعاتها انفسهم . وهذا بالطبع يشكل محاولة جادة مخلصة لفهم الماركسية من خلال منطقها وليس من خلال منطق الاخرين من الذين يناهضونها .

واخيرا يشير المؤلف في مقدمة كتابه الى انه اراد من كتابه ان يكون « خارطة لحقل علم الجمال الماركسي » وانه على الرغم من كونه لا يحاول ان يضيف جديدا الى هذا الحقل فانه ربما كان رائدا في محاولة الجمع بين افكار ومواد لم يسبق لها ان ضمت في مجلد واحد (*) .

والواقع ان اهم ما تتميز به هذه الخارطة وضوح حدودها ومعالمها وتضاريسها الكبرى . انها تعطي احساسا بامكانية الاكتشاف والتنقل باطمئنان وفضول وحب استطلاع كبير . ورغم ان الرحيل في عوالم قضايا الفن والادب يقتضي في كثير من الاحيان شيئا من المغامرة ، وان التنقل في حقل غني ومتنوع وشائك كحقل النقد الماركسي يتطلب شجاعة غير يسيرة ، فان اصطحاب دليل كـ : « **النظرية الماركسية للفن : مسح تمهيدي** » يمكن أن يكون بعض عون في عالم يقول عنه ابو حيان التوحيدي « **المنتهى منه غير مطموع فيه ، ولا موصول اليه** » (١١) .

* * *

(*) الحق المؤلف فصول الكتاب ببيبليوغرافيا جيدة ، ولكن المؤسف ان بعض اسماء الكتب غير صحيحة كما في كتاب تيري ايغاتون الذي ينبغي ان يكون « النقد والايديولوجيا » وليس « Literature and Ideology » اي « الادب والايديولوجيا » ، كما ورد في الصفحة ١٥٠ من الكتاب ، وانظر الهامش رقم (٢) .

هوامش :

(۱) انظر : R . Williams , **Marxism and Literature** , Oxford University **Press** , 1977 .

(۲) انظر : T . Eagleton , **Criticism and Ideology** , London , NLB 1976 . **Marxism and Literary Criticism** , London , Methuen 1976 .

(۳) انظر : J . Ruth & J . Wolff (editors) , **The Sociology of Literature : Theoretical Approaches** , Socilogical Review Monograph 25 , University of Keel , 1977 .

(٤) انظر : D . Laurenson (editor) , **The Sociology of Literature : Applied Studies,** S . R . M . 26 , University of Keel , 1978 .

(٥) انظر : D . Laurenson & A . Swingwood , **The Sociology of Literature** , Palidan , London , 1972 .

(٦) انظر : A . Swingwood , **The Novel and Revolution** , Macmillan , London , 1975 .

(٧) انظر : T . Bennett , **Formalism and Marxism** , Methuen , London , 1979 .

(٨) انظر : S . S . Prawer , **Karl Marx and World Literature** , Oxford University Press , 1976 .

(٩) انظر : The Harvester Press , Sussex , 1978 .

(١٠) للمزيد من الاطلاع على البنيوية والسيمائيات انظر :
عبد النبي صطيف « لهجات جديدة والبنيوية والسيمائيات : سلسلة جديدة وبداية واعدة » في « الموقف الادبي » ، العدد ١٠٠، آب ، ١٩٧٩ ، ص ١٣٩ ــ ١٤٢ .

(١١) ابو حيان التوحيدي : « الامتاع والمؤانسة » : بيروت ، دت. ت، الجزء الثاني ، ص ١٣١ .